بقلم: جوزيف المجدلاني
esoteric_lebanon@hotmail.com

تكنولوجيا اليوم قادرة على رصد حركة الكوكب والأجرام السماوية لعدة أعوام مقبلة.. لكنها عاجزة عن إدراك ما يحصل في النفس البشرية

هذا السؤال الفلسفي الذي كان ومازال الشغل الشاغل لرجال الفكر والفلاسفة والعلماء الذين ما انفكوا على مر العصور، يبحثون عن البداية والنهاية، المنطق والمآب، الخلق والمصير.. يبحثون، يحللون، يتفكرون.. فتكثر النظريات والفرضيات، وتتكاثر الآراء ووجهات النظر والتساؤلات، لكن إذا ما نظر المرء بتجرد إلى واقع كل ما بحثوا فيه يراه يصب في خانة واحدة، ويختصر في كلمات أربع: من أين والى أين؟! إلى أين نسير؟ سؤال لا يتوانى عن طرحه حتى العامة من الناس على اختلاف ميولهم وعقائدهم لان المعرفة، أو الفضول العلمي، ميزه بشرية، بل طبيعة إنسانية لا يمكن التغاضي عنها.

إلى أين نسير؟

لكن المنطق الواعي للأمور، يخبرنا بأننا نطرح سؤالا ناقصا.. فنحن لا نستطيع الانطلاق من النهاية!. إذ أن السؤال- إلى أين نسير- هو نقص لمعرفة النهاية، أو الهدف الذي ينتظرنا، في حين أن المنطق السليم يفرض علينا الانطلاق من البداية، للوصول إلى النهاية، فمهما حاولنا، لا نستطيع إدراك الهدف أو الغاية، ما لم ندرك البداية الأولى أو المنطلق الأساسي.

في ضوء هذا التفكير الناضج المتكامل نرى السؤال المطروح، إلى أين نسير، أو ما هو المصير، وكأنما يطرحه طفل أمسكه والده بيده ليوجهه على الطريق! فيما الإنسان الواعي المتزن التفكير، يدرك مسبقا مقصده، قبل الخروج من المنزل أصلا!

فمن طريقة طرح السؤال، ومن أسلوب البحث، يمكن أن يعرف مستوى الوعي في الإنسان!

لقد لجأنا إلى أسلوب البحث العلمي المتجرد، فطرحنا السؤال على رجال علم وأطباء وعلماء نفس، كذلك رجال دين وفلاسفة وأفراد من عامة الشعب.. فكانت الإجابات التالية:

رجل العلم أجاب: «لا أحد يعلم إلى أين نسير.. ربما إلى الفناء الكلي.. «مستندا في إجابته تلك إلى البرهان العلمي الذي يؤكد بأن الجسد يفنى بعد الموت، وبان لا دليل مادي ملموس يؤكد استمرارية وجود الإنسان بعد الوفاة.

وأجاب رجل الدين قائلا: «نتابع إلى السماء بعد فناء الجسد أما مصير الإنسان في السماء، فإما السعادة الأبدية، أو الشقاء الأبدي واستشهد على ذلك بما تقوله الكتب السماوية والمعتقدات الدينية عن «الجنة وجهنم».

فيما إجابتا الطبيب وعالم النفس أظهرتا ميلهما إلى العلمي، مع تحفظ تجاه الاعتقاد الديني!

أما الفيلسوف، فقد أمعن شرحا وتأويلا.. لكن الملفت للنظر أنه ربط السؤال، إلى أين نسير، بالسؤال الفلسفي من أين ننطلق.. أو ما هي بداية الخلق؟ معللا الواقع بأنه لا يمكن فصل هذين السؤالين بعضهما عن بعض، ومستندا إلى المبدأ القائل بقانون السبب والنتيجة! وبعد أن فسر الفيلسوف الأمور عقليا، معتمدا أطروحات ونظريات وتحليلات منطقية عديدة، لم يستطع إيضاح الإجابة التي نحن بصددها.

أما آراء العامة من البشر، فقد تضاربت وتعددت، فمنهم من رضي بما يقول الدين، لإيمان به أو لخوف منه، لا فرق... ومنهمك من اكتفى بالقول أن لا أحد يعلم.. ومنهم من قال بأننا عائدون إلى الخالق، دونما تفسير يوضح العودة! وهناك من أجاب بأننا سائرون إلى اضمحلال أكيد.. كما أن بعضهم أظهر تخوفا من المناقشة، أو حتى التفكير في الموضوع، إما لاعترافهم بجهلهم به، أو مخافة اتهامهم بالكفر والخروج عن المعتقد الديني!

مجمل القول أن الآراء تنوعت وتناقضت، والإجابات اختلفت وتباعدت.. لكن إحداها لم يوصلنا إلى المرام، إلى معرفة وجهة المسير!

سؤال تتبعه الإجابة

في عرف الايزوتيريك أن الإنسان لا يطرح سؤلا لا إجابة له، فعلى مر العصور، والحضارات المندثرة تشهد انه لم يخطر ببال إنسان سؤال لم يتوصل إلى إجابته، ولو جزئيا في بادئ الأمر.. وقد تأتي الإجابة الكاملة بعد مدة طويلة من الزمن ربما، وهذا ما يدل على أن الذهن البشري لا يراوده سؤال ولا تخطر له مواضيع تستحيل معرفتها.. مما يعني أن كل معرفة يمكن للإنسان إدراكها، وكل موضوع يجب أن يحيط به، إنما هو مسجل في باطنه بطريقة او بأخرى، يخرج إلى حيز الوعي والتفعيل في حينه.. أي حين يصبح بمقدور صاحبه استيعابه للتمتع بإشراقة نورها وحقيقتها!

هذا ما يؤكده الايزوتيريك، الذي يقول بضرورة التدرج

لا نستطيع أن نعرف إلى أين نسير، قبل معرفة من أين ابتدأنا المسير، ولماذا؟

المنطقي في البحث عن المعرفة! فنحن لا نستطيع أن نعرف إلى أين نسير، قبل معرفة من أين ابتدأنا المسير، ولماذا؟.. وإلا دل سؤالنا على تفكير غير ناضج كما أوضحنا في مثال الطفل الذي يمسكه والده بيده..

من أين البداية؟

يوضح الايزوتيريك نهج المعرفة بأننا لا نستطيع أن نبدأ بتقصي النهاية.. بل يجب أن نسأل أولا من أين البداية.. وما هي الغاية أصلا؟! بعدها نتوصل منطقيا إلى الإجابة عن التساؤل الأول. ويوجز الايزوتيريك الموضوع بما يلي:

من أين: من الله، من الخالق..

ما هي الغاية: التطور في الوعي، والوعي في التطور..

فهذه هي غاية الخلق!

إلى أين: إذا ما طرحنا هذا السؤال على أنفسنا، بصدق ومنطق وموضوعية، هل نسمع إجابة أصدق، أو حقيقة أقوى برهانا، سوى أننا سائرون إلى تطور، إلى ارتقاء ذاتي أسمى وأشمل.. إلى رقي إنساني يشيد مداميك حضارة الإنسان الواعي مصيره وقدره. أجل البشرية سائرة إلى تطور أعظم من أن يستوعبه التفكير الحالي، مهما تسامى في المعرفة والإدراك.. فالتطور هو ناموس الوجود، هدف الخلق، درب الخالق في المخلوق. ودرب المخلوق نحو الخالق.. ويستحيل على أي بشري الخروج عن المسار الإلهي، أو مخالفة المشيئة الإلهية، أو معارضة ناموس الوجود، فالإنسان ذرة من الخليقة ومن الوجود ومن مشيئة الخلق.. بل هو نتيجة مشيئة الخلق، وهدفها بعد تحقيقه!

إذا ما ألقينا نظرة شاملة على البشرية عبر الأزمان والعهود الماضية، نجدها سائرة من نضج إلى ارتقاء، من نمو إلى تطور..

على كل صعيد، فالتطور الفكري يجاري التطور التكنولوجي، كذلك التطور الثقافي والحضاري، والطبي والعلمي، إلى ما هنالك..

لكن ثمة جانبا واحدا لم يعره الإنسان الاهتمام لتطويره، ألا وهو التطور الباطني، أو تطوير كيانه الداخلي!

التطور الداخلي الذاتي

تكنولوجيا اليوم قادرة على رصد حركة الكوكب والأجرام السماوية لعدة أعوام مقبلة.. لكنها عاجزة عن إدراك ما يحصل في النفس، وفي المشاعر، وفي الباطن الخفي من أمور وتطورات!

العلوم الطبية توصلت إلى تشريح الخلية البشرية والإلمام بتفاصيلها، ورؤية ما يتفاعل في داخلها.. لكنها عجزت عن تشخيص أسباب داء الحساسية أو اكتشاف علاج فعال للصداع النصفي أو داء الشقيقة- من دون أن ننسى الأمراض الأخرى.

من منطلق عدم معرفته بذاته يبدو إنسان اليوم اعجز من أن يعلم إلى أين يسير.. طالما هو يجهل أمور نفسه! رغما عن ذلك، نجده يسعى نحو التطوير من دون أن يعي الحافز وراء ذلك.

الإنسان يتطور، ويسعى نحو التطور، لأنه يشعر بحاجة إلى التطور، بل لان طبيعته الإنسانية تفرض عليه ذلك. فالتطور، طبيعة فطرية عليها الإنسان منذ الخلق، من أجل إيصاله إلى حيث يجب أن يصل، إلى مرحلة التكامل الإنساني، إلى المدى البشري بقدراته.. ومن ثم العودة إلى الخالق.

نعود إلى السؤال الأزلي، من أين وإلى أين؟

لنتفكر في بذرة زرعت في أحضان تربة خصبة، ولقيت العناية الكافية، بعد فترة زمنية معينة، نراها نبتت، نمت، ونضجت.. ثم أورقت وأزهرت وأثمرت..

ماذا يحصل بعد ذلك؟

إذا ما تمعنا في دورة الحياة تلك. نجدها تطورية.. إذ أن البذرة الأولية لم تفن أو تتلاشى، بل هي تحولت.. بل الحياة الكامنة فيها تطورات.. تطورات من وجود في بذرة، إلى وجود النبتة، ومن ثم الزهرة، وصولا إلى الثمرة!

الحياة الكامنة في البذرة مرت في مراحل عديدة، اختبرت خلالها عدة أنواع وأشكال من الوجود.. حتى انتهت في ثمرة، لكن الحياة لم تنته في تلك المرحلة، بل استمرت تطورية هي أيضا، لتصبح عدة بذار وعدة ثمار.. واستمرت تلك الحياة في تطور وتكاثر، حتى باتت شجرة، ثم بستان ثمار مثلا!!

إذا.. مسار التطور لا يتوقف ولا هو ينتهي، لأنه ناموس الوجود!

كذلك الأمر في الإنسان.. فهو يتطور في الوعي حتى يصل إلى اكتماله الإنساني.

لكن هل ينتهي التطور عند هذا الحد؟!

هنا يصمت الفكر عن المتابعة في هذا الموضوع، ربما خوفا من المجهول أو جهلا به ونترك الإجابة للإنسان الباحث الواعي ليتفكر في أبعادها، ويستشف الحقيقة في أعماقها، وليبصر الحق في آفاقها، فالحقيقة الحقة لا تقدم إلى طالب المعرفة هدية.. ولا حتى الإيزوتيريك يستطيع تقديمها.. فذلك ليس نهجه ولا مبدأه لان ليس كل امرئ يقبل بما يكفيه له الآخرون، وقد ينقضه أو لا يقتنع به حتى وإن كان مقدما من قبل الايزوتيريك.. طالب الايزوتيريك لا يملك سوى الاقتناع بما يتوصل إليه بنفسه، وما يكتشفه هو بنفسه!

في تلك الحقائق يجب أن نفكر ونتأمل، لندرك واقع الحياة.. وإلا فما هو المصير؟

فبدلا من أن نسأل، إلى أين نسير.. لنتساءل، إن توقفنا عن المسير، وعن التطور، ماذا سيكون مصيرنا؟ وهل نرضى بمصير غامض جامد يخلو من التطور والتجدد؟!

لعل أجمل ما قدمه الايزوتيريك من تعاليم ومبادئ تنضح بحكمة العمل وروعة المعرفة، هو التالي:

ليس المهم أن نملك المعرفة، بل أن نعرف كيف نستعملها..

ليس المهم أن نسير، بل أن نعرف إلى أين سنصل وليس المهم أن نطمح إلى الحقيقة، بل أن نعرف كيف نسير نحوها.

فالمسير عبر المصير نحو القدر، هو العلة والمنتهى..

ذلكم هو الوعي.. بل مسار التطور في الوعي!

ولتبارك النعمة الإلهية كل من يسعى في سبيل الهدف الأقدس - الوعي!

البشرية سائرة إلى تطور أعظم من أن يستوعبه التفكير الحالي مهما تسامى في المعرفة والإدراك

التطور ناموس الوجود.. هدف الخلق.. درب الخالق في المخلوق.. ودرب المخلوق نحو الخالق.. ويستحيل على أي بشري الخروج عن المسار الإلهي، أو مخالفة المشيئة الإلهية